

## مقدمة

قبل أن أنهي من كتابة رسالتي عن إليوت وأتقدم بها إلى جامعة ليثربول رأيت أن ألتقي بشاعر إنجلترا الكبير كى ما أستوضح منه بعض النقاط الغامضة . وبالرغم من ضيق وقته الشديد فقد تمكنت من لقائه في التاسع عشر من أكتوبر عام ١٩٦١ في مكتبه الذي يطل على ميدان راسل الفسيح بدار فيبر وفيبر للنشر بلندن .

وقد دار حديثنا الذي استمر زهاء ثلثي ساعة حول الموضوع الذي كان يهمني أن ألم بأطرافه حينذاك وهو الأسس الميتافيزيقية والتصوفية التي ارتكزت عليها أشعاره وتفاعلت معها مسرحياته بعد أن تأثر بها تأثراً واضحاً وبخاصة عقب ظهور قصيدته التي اختلطت فيها الآراء وتعددت فيها المعاني وتشابكت فيها القيم والغايات ، وهي قصيدة « الأرض الخراب » . فن قائل إنها ليست شعراً بل يجب أن تخرج من محيط الأدب لتدخل في نطاق الفلسفة الخاصة ، وينادى بهذا الرأي البروفسور إدوارد جرين الناقد الفرنسي ، إلى قول البروفسور ريتشاردز أستاذ النقد الأدبي بجامعة كمبريدج إن هذه القصيدة في روحها إنما تعطينا صورة حية لآلاءة عن موسيقى الأفكار . وهناك رأى ثالث ينادى بدحض هذه القصيدة من جذورها مستنداً في ذلك إلى غموضها وصعوبتها . وهذا التناقض الواضح في الآراء قد انعكس بدوره على ناقد فذ كالدكتور ليفز فاتهم إليوت بأنه اختتم هذه القصيدة من حيث ابتداء ، وهكذا عجز عن تقييمها ووضعها في المكانة اللائقة بها .

وأعود إلى محور الحديث بيني وبين إليوت فأسأله في بادئ الأمر عن مدى اعتقاده في الفلسفات والديانات التي نراها منبثة في ثنايا أشعاره بغير حساب كالبودية والهندوكية عند الهنود ومذهب كنفوشيوس عند الصينيين ومعتقدات

أهل بابل وأشور والفلسفة المسيحية وبخاصة في القرون الأولى بعد ظهورها . ترى هل تؤدي هذه الاتجاهات والمبادئ كلها إلى غرض واحد بالرغم من الفوارق الشاسعة بينها ؟

فكانت إجابته عن هذه الناحية بأنه يعتقد في هذه الاتجاهات كلها . ثم استطرد يقول إنه يستخلص منها كلها مبدأً معيناً يدين به . والمسيحية في نظره تتفق مع بعض مبادئ الفلسفات الأخرى التي سادت الشرق الأقصى وبخاصة في أثينا ومنغوليا وكوريا وسيلان واليابان . ويرى أيضاً أن المذاهب بوجه عام سواء في الشرق أو الغرب لا تختلف في قليل أو كثير إزاء المبادئ السامية كالحبة والعطف والإخاء والتسامح .

ثم استطرد حديثنا عن قدرة الشاعر في التعبير عن الحقيقة الفلسفية . وإن كان الأمر كذلك فهل في استطاعته أيضاً أن يعبر عن الرؤيا التصوفية ؟ ويرى إليوت في هذا الصدد أن الشاعر في مرحلة الخلق يحس إحساساً قوياً بالمكونات المختلفة التي تشكل في مجموعها الصورة الشعرية ، فإن كانت اتجاهاته فلسفية فإن العناصر المكونة لتلك الصورة تعبر تعبيراً كاملاً عن الحقائق الخالدة . وتلعب الرمزية في هذا المجال دوراً جوهرياً إذ بدونها يتعذر التعبير عن المراحل الكشفية للروح التي تعتبر أساساً عند الصوفية .

ولقد اعترف إليوت في سياق حديثي معه أنه كانت تنتابه أحياناً فترات من الانتعاش الروحي يحس بأنها ليست فترات عادية ، إذ يعقبها نوع من التفتح أشبه بما أطلق عليه اسم « الوميض الروحاني » ، وهو نوع من الشفافية التي تؤدي إلى الانطلاق الصوفي . ولكنه أوضح لي بعد ذلك أن هذا الوميض الذي انبثق له بين الفينة والفينة لم يمكنه من الوصول إلى المراحل الأخيرة التي يصل إليها المتصوفة من جذب واحتطاف وفناء في الذات الإلهية .

ثم سأته عن الغايات التي نتوخاها من وراء أشعاره ، وهل هي تطهير الروح من أدراج الجسد والسمو بها إلى أعلى مراتب الكمال ؟ فكانت إجابته عن هذه

الناحية أنه لم يقصد أكثر من ذلك . إن بعض النقاد يزجون بهذه القضايا داخل إطار مشاكلهم الخاصة ولكن هذا الاتجاه ضار بالقيمة الفنية للشعر . ثم بين لي بعد ذلك أنه قد عالج أموراً روحية تتصل بالقيم والمبادئ والأخلاق ، وهذه بطبيعة الحال يمكن تطبيقها على المجتمعات المختلفة ، شرقية كانت أو غربية بصفة عامة . فالانحلال الخلقى والمشكلات النفسية التي تعرض لها في قصائده ومسرحياته لا تقتصر على بيئة معينة بل هي ظواهر عامة تنفشت في المجتمعات الحديثة عقب الحروب والمنازعات .

ومن العسير علينا أن نلم إماماً صحيحاً بكتابات إليوت دون دراسة هذه النواحي دراسة مستفيضة ، ذلك أنه تأثر بها وتفاعل معها ، فجاءت أشعاره محملة بالصور البليغة والأفكار الفلسفية العميقة . وهو يكتب دائماً بالإشارة المقتضبة ، يؤثر الرمزية كحركة أدبية لها قيمتها الكبرى ، فهي تلعب دوراً جوهرياً في أشعاره ، وقد تأثر بها بعد إمامه بأساطين الشعر الرمزي في فرنسا أمثال بودلير ورامبو وفيران . وكثيراً ما يطيب له أن ينتقل بالقارئ انتقالاً فجائياً دون تمهيد أو مقدمة ، ومن هنا نشأ الغموض في معظم أشعاره . هذا إلى حبه العميق للإتيان بما أطلق عليه جمهرة النقاد اسم « الافتتاحيات الدرامية » لقصائده ، وهي التي تثير في القارئ عنصرى الدهشة والفضول ، بالإضافة إلى استعماله طريقة الحوار في معظم أشعاره مما أدى إلى اتساع الدائرة التي يتحرك فيها أبطاله وشخصوه . وبهذا برزت لنا ألوان جديدة كان الشعر بمنأى عنها كاستعمال اللغة العامية والاكتفاء بكلمة أو كلمتين للإشارة إلى مبدأ معين أو نظرية فلسفية أو حركة فكرية عامة ، فهو يؤمن إيماناً قاطعاً بمبدأ الاقتضاب ، ولهذا يترك للقارئ الفرصة للإمام بكل هذه النواحي المتشعبة . هذا إلى اقتباساته المتكررة من الآداب والفنون والفلسفات القديمة والحديثة ، كل منها بلغتها الأصلية ، فهو يقتبس النص كما هو لينقلنا إلى « جوه » الفكرى دون تغيير أو تبديل . ولهذا جاءت أشعاره محملة بالأفكار والدراسات العديدة ، وهو ينتظر من القارئ أو

النقاد أن يلم شعث هذه الخيوط المبعثرة لينسجها على منوال محكم الأوصال ، ويوجد الترابط والألفة بينها حتى يبدو النسيج طبيعياً دون افتعال ، متآلفاً في غير مغالاة . وهذا لا يتأتى إلا بعد الإلمام العميق والفهم الصحيح لكل أهداف الشاعر ومراميه .

ومن هنا نشأت ثورة النقاد على أشعار إليوت ، وهذه الثورة في الأصل مردها إلى التعب الذهني بعد قراءة كتاباته والحيرة العقلية التي يولدها البحث عن اتجاهاته . فلقد كان الشعر في القرن الماضي سهلاً في ألفاظه ، ضحلاً في مستوياته ، محدوداً في أفكاره وآفاقه ، ينقلك من فكرة إلى أخرى في تسلسل منطقي منتظم ، وهذا مما مكن القارئ من الإلمام بأطراف الموضوع إلاماً سريعاً . أما والحال قد تغير بظهور هذا الكاتب الكبير فقد اختلطت الآراء في معرفة البيت الواحد ووصلت إلى حد التعارض مما أدى إلى شن هجوم شديد على هذا النوع من الشعر بل ودحضه دحضاً تاهماً على أسس أرى فيها الكثير من التجني على إليوت . فالخصيلة التي نخرج بها بعد الإلمام بكل اتجاهاته والثروة اللغوية والفكرية بل والوجدانية أيضاً قد لا تضارعها ثروة أخرى بالنسبة لجمهرة الشعراء المحدثين . فلقد ضرب إليوت قصب السبق في هذا المضمار وبلغ القمة التي لم ينافس فيها أى شاعر آخر في عصرنا الحاضر ، بفضل علمه الغزير ، وسعة اطلاعه ، وإلمامه الشامل بالتراث الفكرى منذ أقدم العصور حتى وقتنا الحاضر .

وقد راعت في هذا الكتاب تطور إليوت فكراً وحاولت أن أطبق نظرياته النقدية على قصائده ثم تتبعته الخيوط الدقيقة التي تجمع أشعاره ومسرحياته في نسيج كلي متجانس ، إذ أن الكتاب مقسم إلى ثلاثة أجزاء رئيسية وهي : النقد والشعر والمسرح ، وهذه الأجزاء بمثابة الأعمدة الراسخة التي أقام عليها إليوت صرحه الفكرية .

## حياته

ولد « توماس ستيرنز إليوت » في مدينة ( سانت لويس ) بولاية ( ميسوري ) الأمريكية في السادس والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١٨٨٨ . وكان أبوه يدعى « هنرى وير إليوت » والدة « شارلوت تشونسى ستيرنز » ، وتوماس هو ابنهما السابع والأخير . ولقد نزحت عائلة إليوت من إنجلترا في القرن السابع عشر ، فهي تنتمي إلى مقاطعة ( ديثون ) حيث قضى « أندرو إليوت » ( ١٦٢٧ - ١٧٠٤ ) حياته الأولى في بلدة ( كوكر الشرقية ) ، وقبل أن يكتمل العقد الرابع من عمره هاجر إلى أمريكا واستقر في بيثربلى ، بماساشوستس ، سنة ١٦٧٠ . وقد اشتغل أندرو صانعاً للأحذية ، ثم كاتباً . وتم الأيام سراعاً لتستقر عائلة إليوت بعد ذلك في مدينة ( بوسطن ) ، ويخرج منها قادة في الفكر والدين ، إذ حصل أحد أفرادها ويدعى « أندرو » أيضاً ( ١٧١٨ - ١٧٧٨ ) على دكتوراه في اللاهوت وأصبح راعياً دينياً لكنيسة الشمال ، ولم يترك هذا المنصب إلا بعد تعيينه مديراً لجامعة ( هارفارد ) . أما جد شاعرنا وهو « وليم جرين ليف إليوت » ( ١٨٠١ - ١٨٨٧ ) فقد رحل إلى ( سانت لويس ) عقب تخرجه من مدرسة هارفارد اللاهوتية سنة ١٨٣٤ ، وفي هذه المدينة كرس كل مجهوداته لخدمة الكثير من القضايا الاجتماعية ، فحارب بكل قواه تجارة الرقيق . ولهذا الرجل الفضل الأكبر في تشييد جامعة واشنطنون ، ولولا معارضته لأطلق على هذه الجامعة اسم « جامعة إليوت » ، فقد عين رئيساً فخرياً لها سنة ١٨٧٢ . وفي هذه الفترة كتب بحثاً مستفيضاً عن « المقومات التنظيمية للألم » بالإضافة إلى بعض مقالات في الفلسفة الخلقية . وقبيل ذلك بقليل تخرج ابنه الثانى « هنرى وير إليوت » ( ١٨٤١ - ١٩١٩ ) - والد الشاعر - من جامعة واشنطنون ، سنة ١٨٦٣ ، وعين بمؤسسة صناعة الطوب الآجر بسانت لويس ،

وأصبح مديراً لها بعد قليل . وقد تزوج من الفتاة الذكية « شارلوت تشونمى ستيرنز » ( ١٨٤٣ - ١٩٣٠ ) سنة ١٨٦٨ وهى معروفة بميلها إلى الدراسات الأدبية ، فقد كتبت قه يدة طويلة تناولت فيها سيرة « ساقونارولا » .

ولما رزقا بتوماس ، أرسلاه إلى المدرسة منذ حداثته ، حتى إذا ما شب عن الطوق ألقاه بأكاديمية سميث وهى إحدى أقسام جامعة واشنطن . وبعد إتمام دراسته فيها التحق بأكاديمية ملتون فى ( ماساشوستس ) ، ثم جامعة هارفارد فى خريف عام ١٩٠٦ ، حيث تخصص فى دراسة الفلسفة . وأثناء دراسته بهذه الجامعة كان محرراً لمجلتها الأدبية ، وكتب عدة قصائد نشرت على صفحاتها . وقد مكث بهذه الجامعة ثلاث سنوات تأثر خلالها بشكل واضح باثنين من أساتذته وهما أرثنج باييت وجورج سانتيانا . ( وقد ظهر هذا الأثر واضحاً فى رسالة الدكتوراه التى تقدم بها فيما بعد - سنة ١٩١٦ - وموضوعها « الخبرة وغايات المعرفة فى فلسفة ف . هـ . برادلى » )<sup>(١)</sup> .

وفى نهاية سنوات دراسته الثلاثة عام ١٩٠٩ ، رحل إلى باريس حيث قضى بها عاماً كاملاً ( ١٩١٠ - ١٩١١ ) فى جامعة السوربون درس خلاله الأدب الفرنسى والفلسفة ، كما استمع إلى المحاضرات التى ألقاها الفيلسوف « برجسون » ، وعاد أدراج الرياح ثانية إلى ( هارفارد ) ليقضى بين جدران هذه الجامعة ثلاث سنوات أخرى ، أتم خلالها دراساته عن الميتافيزيقا والمنطق وعلم النفس . بالإضافة إلى الفلسفة الهندية واللغة السنسكريتية . وأعقب هذه الفترة تعيينه مدرساً للفلسفة بنفس الجامعة . ومن جميل الصدف أنه التقى حينذاك بالفيلسوف البريطانى « برتراند راسل » الذى جاء إلى الجامعة فى ربيع عام ١٩١٤ فتعرف به إليوت ، وأعجب الفيلسوف بعقلية الشاعر أيما إعجاب . وقبل مضى شهر قررت الجامعة منح إليوت فرصة للدراسة بجامعة ماربورج بألمانيا ( قبل إعلان الحرب العالمية الأولى ) ، ومنها رحل إلى جامعة أكسفورد حيث درس الفلسفة

اليونانية بكلية ميرتون .

وفي خريف عام ١٩١٥ تزوج من « فيفيان هايوود » ، وفي السنة التالية اشتغل مدرساً للفرنسية واللاتينية والرياضيات والرسم والجغرافيا والتاريخ وكرة السلة في مدرسة (الهاي جيت) بالقرب من لندن ، لكنه لم يخصص بها زمناً طويلاً إذ تركها ليعمل في بنك (لويدز) بقسم المبادلات الخارجية . وفي سنة ١٩١٨ قيد اسمه للعمل في البحرية الأمريكية ، لكن طلبه رفض لسوء صحته ، وقرر الأطباء عدم لياقته البدنية لتحمل صعاب التنقلات البحرية ، فاشتغل محرراً مساعداً بصحيفة الأجويست<sup>(١)</sup> إلى سنة ١٩١٩ ، وبصحيفة الأثينيوم<sup>(٢)</sup> حتى سنة ١٩٢١ . وفي هذه الفترة كتب الكثير من القصائد والمقالات النقدية والتعليقات الصحفية التي أصبح لها فيما بعد شأن عظيم . وفي عام ١٩٢٣ عين محرراً لمجلة الكريتيرون<sup>(٣)</sup> ، واستمر في خدمتها إلى ما قبل إعلان الحرب العالمية الثانية بقليل . ثم عين بعد ذلك مديراً لمؤسسة ( فيبر وفبير )<sup>(٤)</sup> للطباعة والنشر . وفي سنة ١٩٢٧ منح الجنسية البريطانية واتخذ بذلك إنجلترا وطناً له . وبعد فترة طويلة من الغياب عن أمريكا دامت ثمانية عشر عاماً عاد إليها وعين أستاذاً زائراً للشعر بجامعة هارفارد لمدة سنة (١٩٣٢ - ١٩٣٣) . ثم أصبح بعد ذلك رئيساً للجمعية الكلاسيكية ، سنة ١٩٤٣ ، وجمعية « فرجيل » سنة ١٩٤٤ ، ومكتبة لندن سنة ١٩٥٢ . ومنحته كل من كلية (ميرتون) بأكسفورد وكلية (ماجدالين)<sup>(٥)</sup> بكمبريدج الزمالة الفخرية ، كما منحته أيضاً أربع عشرة جامعة بريطانية وأوروبية وأمريكية درجة الدكتوراه الفخرية ، هذا بالإضافة إلى وسام الاستحقاق والجدارة الذي ناله من الحكومة البريطانية سنة ١٩٤٨ ،

"The Egoist"

"The Athenaeum"

"The Criterion"

"Faber and Faber"

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

(٥) المجدية

وجائزة نوبل للأدب في نفس السنة .

وقبل هذا التقدير العظيم الأخير بسنة واحدة ، توفيت زوجته الأولى « فيفيان » بعد مرض عضال ألزمها الفراش مدة طويلة . واستمر إليوت وحيداً إلى أن تزوج في يناير سنة ١٩٥٧ من « فالاري فليشر » وهي سكرتيرة الخاصة التي عاش معها إلى أن عاجلته المنية وتوفى في الرابع من شهر يناير ١٩٦٥ وقد بلغ من العمر ستة وسبعون عاماً